

نشيد نهر الصفا

عين زحلنا قرية لطيفة يعرفها أكثر الذين اعتادوا الاصطياف في
جبال لبنان ؛ وألطف من القرية نفسها غابات الصنوبر التي تحيطها
وأجمل من هذه وتلك منظر نهر الصفا المتدفق عند قدم الجبل ،
وعلى بعد أمتار قليلة منه بركض نهر القاعة

كل من النهرين يسرد حكايته الأبدية على الأشجار المصفية
التيما بحلها السندسية. ويظل النهران في اندفاع وشكوى ، وروح
الوادي تئن في أثرهما إلى أن تلم مياههما مياه البحر العظيم
في الصيف المنصرم زرت عين زحلنا لأول مرة

هنا سالت صور الكون الهيولية وذابت ذرات الاثير ؛

هنا اجتمعت بلابل أرفيوس لتعيد ذكرى أوريديس ذات القاب

الكسير ؛

هنا تهبت العطور تهدياتها الغرامية ، ونحوت الورود إلى أشعة

سحرية ؛

هنا اغتسل قوس القزح ، فترك في الماء من ألوانه ألحانا فضية ؛

ومن دماء الاحلام المتجمدة استخرج قوس قزح ألوانه السرمدية ؛

هنا بعث الأفق بأسراره إلى الأرض مع خيوط من الاثير ذهبية ؛

هنا نامت الاشباح بين أجفان بنات المياه ، فامتزج النور بالظلام

وتلاشت اليقظة بالمنام ؛

هنا ناحت حمام الشمر ، وغنت أطيوار الانعام ؛

هنا لثلاث النسيم شوقٌ وهيام ؛
 ومداعبة الموجة للموجة تبادلُ نظرةٍ وابتسام ؛
 وجمود الشاطئ ، حقد على فتور الليالي ومعاكسات الأيام ؛
 هنا ارتعاش الأوراق على العصور تحية همت من مقل الكواكب
 وسلام ؛

وتمايل الافئنان ودلالها نجوى ملك الوحي والإلهام ؛
 هنا ليلة أنوارٍ وفجرٍ ظلام . والغاز ملامسٍ وألوانٍ وأنغام ؛
 حينما يمرُّ الفجر على قم الجبال يرى صورته في هذه المرآة البلورية ،
 يرى رمز الشبية مع ما يتبعها من جواهر الآمال النضرة كالأزهار ،
 والأميال المتقلبة كالأطيوار . ثم يأتي الغروب ساكباً في أعماقها كل ما في
 أحزانه من المرارة مع ما يرافقها من النظرات المتحوّلة والابتسامات المتغيبية
 والجباه الكئيبة والشفاه المتحركة بالصلوات ، الساكنة بالتأملات
 هنا عيدان الأشجان تبكي - تبكي بقلبٍ جريح . وفي كل لحظةٍ
 يخيل أنها تسلّم نفسها الأخير بشهيقٍ فيه من اللوعة والكتمان والتجلد
 بقدر ما فيه من المجد والمظمة ، من البسالة وعزة النفس الأبية
 لكنّ المياه لا تموت ولا تحيا ، بل تردد ذكرى الماضي ، وتهمس
 خفية نبوتها في المستقبل ، وترادف أصوات الافراج وتعدد آهات الأرواح
 هنا لغزٌ من الغاز الحياة . ليلة من ليالي الزمان . وأنا لغزٌ أمام هذا
 اللغز ، ليلة ازاء هذه الليلة . أهيم وحيدة على الشاطئ ، الحزين ، أنظر
 ولا أرى ، أسمع ولا أفهم ، أفكر ولا أجد ، أستمع ولا أعلم

فؤادي يخفق مع فؤاد النهر الخفي ، ونفسي قيثاره الأحلام والأحان .
لكني لغزٌ حيٌّ تائه في ظلِّ العصون ، ينظر مستفسراً الى لغز آخر ، فلا
يجد فيه إلا صورته ، فيودّ تمزيقها وسحقها وان أحبها !

*
*
*

عند اختصار النهار ذهبتُ الى رأس النبع وجلست على صخرةٍ
فأثمة في وسط المياه المتسلسلة من صدر الصخرة الكبيرة . جلست وأرواح
الخيال تستنشق الريح المطري المعانق لشعور بنات المياه . وآلهة
الأهوية الأربعة يتلاعبون بدقائق الشفق سابحين على أمواج الظلام ،
وحول أشباحهم تلتفت الكليل البنفسج وقلائد الياسمين ، وفي نفورهم يامع
فتيت النجوم ، بينما ابتكار الشعر تسرّ لآخواتها خفايا اليأس والرجاء تحت
أشجار الصنوبر ، وعذارى الطرب تستخرج من عناقيد « باخوس » خمراً
تسكر به الباب الآلهة ، ومن سكر الآلهة يولد الشعراء والأنبياء

على هذه الصخرة حيث انا احلم ثملة بما شربته مشاعري من رحيق
الخيال العلوي ، كان يجلس الامير بشير الشهابي الكبير . كثيرون من
من بعده ومن قبلي جلسوا هنا وفؤاد كلِّ منهم منقبض تهيباً وخشوعاً
أمام أنفاس الطبيعة واصوات الخلود . ما يجول بخاطري الآن كان يجول
بخاطرهم لان الافكار تتشابه في المصدر وفي النتيجة على رغم تعدّد
شعبها وفروعها ، والرغائب الكثيرة اللاصقة في أعماق النفس البشرية
هي هي في كل آن ومكان

جميعنا طرح على النهر السؤال الذي انثر تموجاته الآن على الامواج

المتراكضة : هو سرّ الاسرار الغامضة الذي يردده صدى الهياكل العميقة
التي تشيدها المدارك في قدس اقداس البشرية : من أين وإلى أين ؟ من
أين وإلى أين ؟ ؟

من أين تأتين أيتها المياه وإلى أين تذهبين ؟

... من أين أتينا وإلى أين نذهب ؟ ...

المياه تتدفق في أثر المياه مهللةً مكبرة ؛ وقد أفاضت أصواتها في
الغناء والنحيب ، ودمدمت العناصر فيها اسرار الوارد الالهي ، ورفرفت
على جوانبها اجنحة الخلود ...

من أين وإلى أين ... ؟

ثقل دماغي بأفكارٍ لا ادركها ، وضاق مني الصدر لمعوم لا اعرف
ماهيتها فنزعت عن ساعدي ساعة وضعت في اسورة ذهبية ونظرت
اليها قائلة : - أيتها الساعة ! انتِ رمز الوقت الجاري في نهر الزمان
فيسير قاصداً بحر الأبدية . ها انا اغطسك في هذه المياه ... عسى ان
تحفظني في حياتك المعدنية أثراً لرموز معنوية . ثم جمعت بعض الحصى
الجميلة الكثيرة الالوان الراكدة في أعماق النهر ، قائلة : « أيتها الجواهر !
سأحملك معي الى وادي النيل لتذكريني بالعواطف الكثيرة التي تلاطمت
في فؤادي أمام نهر الصفا ... أنتِ ذكر الأبدية التي حيت فيها لحظة »
واذ رفعت عيني الى الافق رأيت مقلة الزهرة ترقب يد ملك

الظلام الراسمة على رداء الليل صور الهيئات السماوية

فغادرت رأس الشبع مرددة : أنهر الصفا ! من أين وإلى أين ؟

* *

أنهر الصفاء جئتك تعب الروح والجسد معاً
 قرأت خلاصة الاحوال الحاضرة فدوت في جوانب مخيالي اصوات
 المدافع ، وتمثلت لناظري صور الحرب المرعبة . ثم قصدت الاجتماعات
 فلا اذني ضجيجها التافه . وضجرت نفسي من معانيها السطحية - ان لم
 تكن خبيثة . عجبت من بلاهة الانسان ومن زكاه امياله وفتور همته .
 اذ ذلك سمعت اسمك الموسيقي فاحببته لان فيه جمالاً وعدوبةً وسلاماً .
 لقد احرقت قدمي الرمال الحارة ، ومزقت يدي اشواك الحياة ،
 جئت اليك لاستخلص من اعشابك بلسمًا لجروحي . تعلق بأهدابي غبار
 المادة محاولاً إخفاء الجمال المعنوي عن عيني ، فأتيت لاغسل أهدابي
 بمياهك المقدسة

جئت لأرطب يدي وعيني برضابك العذب
 ثقل فؤادي علي ، فأسرعت لأبحث به معك الى روح البحر العظيم
 الذي يناديك اليه من عمق اعماق زرقته البعيدة
 أنت ابن الغيوم ، والعبوة الحرارة الهوائية ، وضحكة المادة الدائمة ،
 وفقهنة الجوّ بين الهضاب والأودية . أنت قبلة الشمس للبحر . أنت
 أنشودة الجبل في الوادي . أنت الروح الصغيرة المسرعة الى احضان
 الروح الكبيرة

أنت جميل كأسرار الجنان . عذب كمنظرات الوهان
 وفي اسمك ألوان وألحان

أنت تهاجم بي ، أيها النهر ، نخذني معك بعيداً عن الحياة وضوضائها
 خذني معك . . . لكن ، ما هي نسبتني إليك ؟
 أنت مجموع سوائل لا وجدان لها ، ولا قلب يخفق بين اجزائها .
 وأنا . . . أنا شيء آخر . أنت لغز بين البحار والآفاق ، وأنا لغز بين
 الحياة واللانهاية . أنا اعرف اني لا افهمك ، واشعر بجهل الانسان وشقائه ،
 اما انت . . . ما لنا ولك ؟

سيرى ، أيتها المياه ، سيرى واتركيني . أسقي النباتات والاعشاب ،
 ضعي لآلي في أفهام الورود ، رطبي صدر الارض الملتهب ، ترنمي في وحدة
 الوادي ، اسردي حكايتك التي لا تنتهي ، اندي ، هلي ، اصرخي ،
 اهمي ، انشدي ، انحي ، اطربي ، احزني . كل هذا ننسبه اليك نحن
 ابناء الطرب والكتابة

سيرى ، ايتها المياه ، ودعيني ابكي . لقد تلبّد جوّ فكري بالغيوم
 القاعة . وقاي - مالك وله : - منفرد حزين . . .



﴿ الشكوكيون ﴾

ليس شيء من أمور الدنيا الا وهو معرض للشك حتى قال بعض الفلاسفة :
 ان كل شيء يقبل الشك حتى قولي هذا : ان كل شيء يقبل الشك ، ومن بين
 الفلاسفة طائفة يعرفون بأهل الشكوك يشكون في كل شيء حتى في وجود ذواتهم

محمد المويدي

